ابو الحسن علي الحسني الندوي

قصة كتاب

يحكيها مؤلفه

ملتزم النشر و التوزيع
« المجمع الاسلامي العلمي »
ندوة العلماء ، ص. ب ١١٩ لكناؤ (الهند)

من مطبوعات «المجمع الاسلامى العلمى» ـ لكناؤ (الهند)

رقم - ٢٥٤

الطبعـــة الأولى

١٤١٣هـ — ١٩٩٣م

قام بالنشر

محمد غيـاث الدين الندوى

المطبعة الندوية (مؤسسة الصحافة و النشر)

ص . ب ٩٣ ـ ندوة العلماء ـ لكناؤ (الهند)

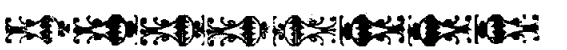

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقلم : الأستاذ واضح رشيد الندوى
رئيس تحرير صحيفة « الرائد »

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله و صحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

و بعد فلكل كتاب مؤثر ، قصة أو بتعبير أوسع باعث يبعث المؤلف على التأليف ، ينقل به المؤلف شعوره أو دراسته أو تفكيره إلى القارئ ، و تكون هذه البواعث كثيرة ومتعددة ، إصلاحية ، وعلمية ، وقد تكون اقتصادية .

و تكون بواعث بعض التأليفات وجدانية وشعورية ، يجد الكاتب فيها دافعاً إلى التأليف للتعبير عن مختلجات

صدره، ولا بلاغ القارئ ما وصل إليه تفكيره فى موضوع مهم يشغل بال الكثيرين ، و قد يكون المؤلف مضطراً إليه كما يكون الواقف على مكان عال و هو يرى غيره أمام هوة سحيقة يكاد يقع فيها ، فينادیه و ينبهه لكيلا يقع فيها ، أو كمن يشعر بألم فيكون مضطراً إلى التعبير عن ألمه .

و قد كانت قصة تأليف كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » قصة مماثلة ، إنها قصة الإحساس و الوجدان .

كانت أواخر القرن التاسع عشر فترة حاسمة فى تاريخ البشرية ، فقد استولت أوربا على العالم كله ، و بدأت تنهار القوى الإسلامية التى كانت تشكل سداً منيعاً للقوى الأوربية الزاحفة مدة طويلة ، بعد أن خيبت جميع مطامعها للتوغل فى الحصن الإسلامى ، ثم كان سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية الذى كان بمثابة تصدع سد مأرب ، فتفرقت كلمة المسلمين ، وسقطت آخر قلاعهم ، واستطاعت أوربا كنتيجة لتفكك هذه القوة التى كانت تدافع عن

القوة الباقية للمسلمين أن تصل إلى مصر، والشام، والعراق التى خرجت منها الجيوش الإسلامية الغازية، و وجدت مواقع التأثير و النفوذ السياسى فى الجزيرة العربيـــة التى خرجت منها أفواج الدعاة ومؤسسوا الحكومات الإسلامية.

و قد كانت هذه المأساة التى دكت قلاع المسلمين، و سقطت الدول الإسلامية فيها كحبات السبحة، وتأسد فيها أعـــداء الإسلام، مأساة انقلبت فيها الموازين، واضطربت لها النفوس، و ثارت قرائح الشعراء، وفاضت بالرثاء على مجـــد الإسلام و المسلمين السالف، و نبهت بالخطر الداهم خطر الغزو الأوربى الفكرى و العسكرى، و هدم ما بنـاه الإسلام من حضارة إنسانية عالميـــة متناسقة الأجزاء.

و كان الانطباع من هـــذا التعبير عن اندثار قوة المسلمين، وغلبة الأعداء، الشعور بعظمة الغزاة، وتقدمهم فى العلم، و الحضارة، و قد كانت الكتب الإصلاحية التى ألفت فى ذلك العصر تعطى أيضاً هذا الانطباع الذى يتجلى فيما ألفه الكتاب الذين تناولوا الموضوع فوصفوه

بتخلف المسلمين و تقدم غيرهم ، و كان العلاج الذى يصفونه تقليد المسلمين غيرهم ، و اتخـــاذ الوسائل التى اتخذوها للتقدم .

كان هذا العلاج علاجاً طبيعياً ، لكنه لم يكن يقوم على أساس طبعى يليق بطبيعة الإسلام و المسلمين .

نشأ مؤلف كتاب « ماذا خسر العالم » فى هـــذه الظروف ، ظروف غلبة أوربا ، وانكسار شوكة المسلمين ، و تعرف على ما قدم فيها الفكر المعاصر من أسبـاب و معالجات ، و كانت عصارة هذه المعالجات أن المسلمين تخلفوا عن ركب الحياة لأنهم لم يتخذوا تلك الوسائل التى اتخذها غيرهم ، فخسروا مكانتهم فى العالم ، و دان العالم لغيرهم ، و لا يمكن للمسلمين أن يستعيدوا مجدهم إلا باتباع هذه الوسائل الحديثة ، وكان الكتاب والمفكرون يمجدون الحضارة الأوربية ، و يفخمون مكاسبها ، لأنهـــم كانوا يكتبون فى عهد غلبتها و سيطرتها .

و قد شعر المؤلف لنشأته الخاصة و طبيعته الخاصة و دراسته من زاوية مختلفة ، بعيداً عن تأثير الفكر الغربى

بأن هذا الاستنتاج استنتاج لا يليق بطبيعة الحال ، وأحس بدراسته الحرة للحضارة الأوربية و نواياها ، و اتجاهاتها ، و منطلقاتها ، و ملابساتها ، أنها لا تحمل صلاحية لتقليد ، لأنها ليست حضارة البناء و إسعاد البشرية ، و قد تجرع العالم ثمرتها المرة الأولى فى شكل الحرب العالمية الأولى التى غيرت خريطة العالم بين ١٩١٤—١٩١٨م و لم تخمد النار ، بل ظلت متوقدة تهدد مصير الانسانية ، و ازدادت هذه المخاوف فى الأربعينات ، فاندلعت نيران الحرب من جديد و وقعت مأساة انسانية ثانية فى ١٩٤١—١٩٤٥م .

و إذا تتبعنا سنين نشأة الفكر و العاطفة للمؤلف و التأليف فى الموضوع ، وجدنا أنها تتعلق بفترة ما بين العشرينات و الأربعينات (١) .

لقد كان كثير من المؤلفين فى الموضوع يلاحظون و يحربون ما يعانيه العالم الاسلامى فى هذه الحضارة المادية الجامحة التى تفترس الانسانية بعد انحسار الحضارة الاسلامية

---

(١) المؤلف من مواليد عام ١٩١٤م ، وتأليف الكتاب فى عام ١٩٤٤م .

الانسانية ، لكنهم كانوا مبهورين ببريق الحضارة الغربية ، مقهورين بالقوى المستبدة الطاغية ، فلم يتجرأ أحد أن يقول لقد خسر العالم بغلبة هـــذه العناصر التى خلفت القيـادة الاسلامية ، و أن الانسانيـــة سعدت لأول مرة فى ظل الاسلام ، و أنه لا تفلح الانسانية إلا بعودة الاسلام .

كان هذا الشعور المزدوج أن الخسارة ليست بخسارة المسلمين وحدهم ، و أن الحضارة الغربية ليست بحضـارة جديرة بالتقليد و التمجيد ، و أنها حضـارة زائلة ، و أن الحل ليس فى تقليدها بل فى عودة المسلمين إلى حقيقتهم و ذاتيتهم و هو موضوع الكتاب ، حقيقـة اكتشفهـا المؤلف ، و كان ذلك اكتشافاً حارت له العقول ، و لا يزال العنوان يثير تساؤلات فى النفوس وخاصة فى نفوس الذين نشأوا نشأة غربيـــة ، و آمنوا بأوربا و حضارتهـا ، و اعتبروها معلم الانسانية و مربيها ، و اعتبروا حضارتها حضارة الرفاهية والسعادة للإنسانية ، وكان هذا الاكتشاف أعظم و أكثر تأثيراً عند ما صـدر الكتاب لأن أوربا

كانت أقوى و أعظم فى ذلك العصر ، ففوجئ الناس بالعنوان و موضوع الكتاب (١) .

و بعد هذه المفاجأة ، كل من يقرأ الكتاب يجد نفسه منساقة إلى الاعتراف بهذه الحقيقة لأن المؤلف يجمع فى أسلوبه الروح العلمى و الدعوى المفهم معاً فهو أديب مؤرخ ، باحث ، معلم ، واقعى ، فيؤثر فى نفوس جميع طبقات الناس و العقول ، فى آن واحد ، وإلى هذا الجمع الغريب يشير الكاتب الاسلامى الكبير سيد قطب الشهيد .

« لا يعتمد على مجرد الاستثارة الوجدانية الدينية ، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته ، فيعرضها على النظر و الحس و العقل و الوجدان جميعاً ، و يعرض الوقائع التاريخية و الملابسات الحاضرة عرضاً عادلا مستنيراً ، و يتحاكم فى القضية التى يعرضها كاملة ، إلى الحق والواقع و المنطق و الضمير ، فتبدو كأنها متساندة فى صفه و فى

---

(١) صدرت الطبعة الأولى فى عام ١٩٥١م .

صف قضية بلا تمحل ولا اعتساف فى مقدمة أو نتيجة ، و تلك مزية الكتاب (المقدمة) .

و قد اكتشف الكاتب الاسلامى الكبير سيد قطب أن الكتاب تعبير عن إحساس عميق ، و عن دراسة من زاوية جديدة مستقلة عن زاوية الدراسة الأوربية للتاريخ و الواقع ، فهو بذلك محول للفكر الإسلامى وموجه إلى زاوية جديدة للدراسة و البحث ، و فى هذه الندرة فى الإحساس و الفكر و التعبير ، يكمن سر الاقبال على الكتاب ، فقد صدرت الطبعة الأولى ، فانتشرت فى العالم رغم كون الكاتب فى ذلك الوقت خامل الذكر ، و كان الكتاب باكورة مؤلفاته ، لم يعرفه العالم ، و تسابق كبار الكتاب فى العالم العربى إلى تقديم الكتاب و التعريف بالمؤلف فى الطبعة الثانية ، و هو أكبر دليل على تأثير موضوع الكتاب و صلاحيته للقبول ، ثم توالت الطبعات ، رسمية و غير رسمية إلى أن

تجاوز عددها عشرين طبعة ، و نقل الكتاب إلى لغات العالم الكبرى منها الأردية ، الفارسية ، التركية ، الانجليزية الفرنسية ، الفلبينية ، الاندونيسية ، البنجالية ، و علق عليه كبار المؤلفين ، و بعد نقل الكتاب إلى اللغة الانجليزية انتشر الكتاب فى العالم الأوربى ، و أقبل عليه الأساتذة فى الجامعات و علقوا عليه .

وقد كتب البروفيسر سارجنت من جامعة كمبردج :

« لو كان فى بريطانيا قانون للحظر على المؤلفات لكنت اقترحت أن يفرض الحظر على هذا الكتاب لأنه يدين الحضارة الغربية » .

وكتب الدكتور بكنكهام رئيس قسم الشرق الأوسط بجامعة لندن :

« إن هذا الكتاب أفضل نموذج و وثيقة تاريخية لأفضل مجهود للنشأة الثانية للمسلمين » .

و من الخصائص الأخرى لهذا الكتاب أنه كتاب

لا يزال فى زمانه وأوانه ، بينما فقدت كثير من المؤلفات تأثيرها و سدادها لمروز الزمن و تقدم الفكر ، و أصبح موضوعها موضوعاً قديماً و مدروساً ، لكن هذا الكتاب بأسلوبه لا يزال يحتفظ بتأثيره و جدته ، و يقود الفكر الاسلامى ، و يجد الباحثون فى دراسته ضالتهم المنشودة ، و لا يزال يبعث الكتاب على التفاؤل ، و يهدى إلى الطريق .

و سيقرأ القارىء فى الصفحات الآتية قصة هذا الإحساس الذى دفع الكاتب إلى الدراسة و العرض ، يحكيها المؤلف نفسه ، وقد ضمها الكتاب ، و رأى المؤلف أن يفردها فى رسالة مستقلة لينتفع بها عدد أكبر من القارئين ، و يعرفوا قيمة الكتاب و الروح السائدة فى تأليفه .

واضح رشيد الندوى

دار عرفات ٣/ شوال ١٤١٣ هـ

قصة كتاب
يحكيها مؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة و السلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فلعل كثيراً من القراء الفضلاء لا يعلمون أن هذا الكتاب (١) كان باكورة مؤلفاتي ، و كان بداية تاريخ التأليف ، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزت الثلاثين من عمري قريباً (٢) ، و كان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة ، و في بلد بعيد

---

(١) يعني به المؤلف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» .

(٢) كان تأليفه بين سنة ١٣٦٣هـ—١٣٦٤هـ (١٩٤٤م— ١٩٤٥م) .

عن مركز اللغة العربية و آدابها وثقافتها ، و قد ولدت فى الهنـــد و نشأت و تعلمت فيها ، و لم يقدر لى أى سفر خارج الهند ، وكانت الرحلة الأولى المباركة التى وفقنى الله لها هى الرحلة التى قمت بها لأداء فريضة الحج سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ، يعنى بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات فكانت فى الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئاً ولا مرشحاً لها ، و كان من الجسارة أن أتناول هـذا الموضوع الذى كان جديراً بقلم أكبر من قلمى ، وبعقل أوسع من عقلى ، و بتجربة أطول و أوسع من تجربتى كمؤلف ، و لـكن الله يفعل ما يشاء .

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقاً يسوقنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع و لو استشرت العقل و اعتمدت على تجـارب المؤلفين ، و على مقاديرهم و مكانتهم العلمية ، لأحجمت ، و لعدلت عن هذه الفكرة ، و لو ذكرت ذلك لأحـــد من العقلاء العلماء ، و الكتاب الفضلاء ، لأشـاروا على بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية ، و لـكنه كان من الخير

أنني لم أستشر أحداً ، كما يقول الدكتور محمـــد إقبال : « ليس من الخير أن تستشير عقلك دائمـاً ، فتح عقلك جانباً في بعض الأمور ، فان العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة ، و يشير عليك الابتعاد عن مثل هـــذه التجارب المريرة » .

و كانت المراجع العربية التي كان لا بد من أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلة ، لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية ، و كانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند و البلاد العربية ، فكانت الهند تستورد قليلا من البضاعة العلمية و المراجع التاريخيـــة و الثقـافية باللغة العربية ، التي كانت تزخر بها البلاد العربيـــة بصفة عامة ، و مصر بصفة خاصة ، أما المراجع العلمية باللغـــة الإنجليزية والأردية فكانت متوفرة ، و كانت بمتناول يدي ، و كانت في لكهنؤ — مدينة العلم و الثقافة — مكتبـات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنجليزية والموسوعات العلمية و كنت على اتصال بها ، أستعير منها الكتب و أطالعها وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية ، و كان من تيسير

الله تعالى و الارهاص لتأليف هذا الكتاب ، أنى كنت طالعت قريبـــاً تاريخ أوربا سياسة و اجتماعاً ، و ديانة و خلقاً ، و حضارة وثقافة ، بنهامة و فى توسع وعمق ، و عنيت بموضوع الصراع بين الديانة و العلم ، و البلاط والكنيسة ، دراسة اختصاصية و تاريخ الأخلاق فى أوربا و تطورها ، و العوامل التى صاغتها صياغة خاصة ، انتهت بها إلى هـذا المصير المادى ، الذى أثر فى مسيرة الشعوب الغربية و الشرقية واتجاهاتها ، تأثيراً عاماً و حاسماً .

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية الإسلامية ، وديانانتها و حركاتها و فلسفاتهـا ، و تاريخ الإسلام و المسلمين ، و تاريخ العرب فى الجاهليـــة و الإسلام ، من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع ، ومن خلال الشعر والأدب فكان أيسر لى نسبياً بفضل ثقافتى الدينية والأدبية والتاريخية و لأن موادها كانت متوفرة فى مكتبة ندة العلماء الكبيرة ، ومكتبات شخصية ، و بفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر فى شبه القارة الهندية ، ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية ، و ما تنشره من بحوث ودراسات علمية .

زد إلى ذلك التكوين العقلى والنفسى الممتاز، المؤمن بخلود رسالة الإسلام ، وقيادة محمد عليه الصلاة و السلام وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور ، و بالنقص الواقع فى طبيعة الحضارة الغربية ، و مزاج الأمم الغربية ، الذى لا يفارقها فى حال من الأحوال ، و ظهوره — فى شكل مجسم فى قيادتها ، وذلك نتيجة تربية أخى الأكبر الدكتور السيد عبد العلى الحسنى أمين ندوة العلماء العام، الذى كان مثالا فريداً فى الجمع بين الثقافتين الإسلامية و الغربيـــة العصرية ، و عمق فهمه للإسلام و اتزانه الفكرى البعيـد عن كل غلو و تطرف ، و قـد جعلنى كل ذلك أنتفع من دراساتى المتنوعة — المتناقضـة أحياناً المشوشة لكثير من القراء الذين لا يزالون فى سن المراهقـة الفكرية — و أستخرج منها نتائج إيجابية معينة ، و « من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » وتزداد بها ثقتى بصلاح الإسلام للقيادة و السيادة فى كل عصر ، و إيمانى بأن محمداً ﷺ ، هو « خاتم الرسل ، و إمام الكل ، و منير السبل » و كنت أشعر بخطر الموضوع و أهميته ، و بقلة

بضاعتى و حداثة سنى ، و قلة أعوانى ، و جدة موضوع الكتاب و طرافته ، و لكن لم أكن فى الحقيقة مخيراً ، بل كنت مسيراً ، كأن هاجساً يهجس فى ضميرى ، ويقول لى : لا بد من وضع كتاب فى هذا الموضوع .

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس و إثارته لدهشة الكثير منهم ، أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير الإنسانى و بالأوضاع العالمية ، حتى يجوز أن يقال ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أو ماذا سيربح العالم و يجنيه من الفوائد ، بتقدم المسلمين و تسلمهم لقيادة البشرية ؟ .

كان الناس قد اعتادوا فى ذلك العصر ، و قبل العصر الذى ألف فيه هـــذا الكتاب ، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمى ، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادى و كأمة من أمم كثيرة ، و لكن تشجع مؤلف هذا الكتاب و تخطى هـــذه الحدود المرسومة ، و خرج من الإطار التقليدى الذى فرض على المؤلفين

و الكتاب فى العرب و العجم ، فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين ، و شتان بين النظرتين ، نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم و من خلال الحوادث التى جرت فى العالم ، و من خلال التطورات التى حدثت فى التاريخ ، المسلمون شعب من الشعوب ، يخضعون لما يجرى فى العالم فى إطار عالمى واسع ، فكان المنهج الفكرى العام و أسلوب البحث الدائم ، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلانى ؟ ، و بسبب انقراض الحكومة الفلانية ، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة ؟ ، ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التى حدثت فى الغرب ؟ ماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانية ؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام و المسلمين ؟ و ماذا خسر المسلمون بفقرهم فى الاقتصاد ، و فى السياسة ، و فى القوة الحربية ؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدى الذى اعتاده الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى و شرح صدرى لأن أكتب فى موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ كأن المسلمين هم العامل العالمى المؤثر فى مجارى الأمور فى العالم كله ، ليس فى بقعة جغرافية محدودة ، أو منطقة

سياسية خاصة ، هل المسلمون حقاً فى وضع يمكن أن يقال أن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم ، هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال أن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم ، و بتخلفهم عن مجال القيادة العالمية ، إننى أخاف و أخشى أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة و كانت لهم سوابق عديدة ، لم يفكروا هذا التفكير ، إن تشوية التاريخ الإسلامى والنظر إليه من زاوية ضيقة ، و مركب النقص الذى أصيب به الجيل الجديد المثقف ، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم و بقضية الإنسانية ، أين المسلمون من القيادة العالمية ؟ المسلمون فقراء ، المسلمون ضعفاء ، المسلمون محكومون من الغرب ، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين و واقعهم ؟ ، لا ! إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون فى ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية و الخطر والتأثير و من المكانة ، ما يؤهلهم لهذا البحث ، و يسوغ لمؤلف أن يؤلف كتاباً فيبحث عن مدى خسارة

العالم الإنسانى و العالم المعاصر بانحطاط المسلمين ، أن الموضوع كان خطيراً ، و كان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك .

ألفت هذا الكتاب على تردد وتخوف ، لأننى كنت جديداً فى مجال التأليف خصوصاً فى اللغة العربية (١) فقد كانت صلتى بها صلة دارس يولد بعيداً و يعيش بعيداً عن مركز الثقافة العربية و عن مركز العلوم الإسلامية الأصيل ، و كان يساورنى شك ، هل ينال هذا الكتاب تقديراً فى البيئات العربية و الإسلامية البعيدة ، فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف و الترجمة و النشر فى مصر ، و رئيس الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، و قد نالت كتبه خصوصاً سلسلة

---

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة « قصص النبيين للأطفال » (١—٢) و « القراءة الراشدة » (١—٢—٣) و « مختارات من أدب العرب » و كلها كتب دراسية ألفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية فى المعاهد الدينية فى الهند .

« فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » إعجاب القراء الباحثين ، وكان لها دوى فى الأوساط العلمية ، و كنت معجباً بها . و قد درستها دراسة عميقة ، و علقت على آرائه بالموافقة فى الغالب ، و بالنقد و الاختلاف فى بعض الأمكنة ، و أعجبت بأسلوبه المركز الذى يجرى مع الطبع ، و آثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التى كانت لها و لما يصدر منها قيمة علميـــة كبيرة فى الشرق العربى ، فيقبل على قراءته الشباب المثقف و المعنيون بالأبحاث العلمية و الدراسات الموضوعية ، و أنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التى تعطى فكرة إجمالية عن الكتاب ، و مؤلفه مجهول ، ليس له أثر علمى ولا شافع ولا مزك .

و فوجئت بكتاب تلقيته منه يطلب منى فيه نموذجاً من هذا الكتاب ، فارسلت إليه قطعة من الكتاب .

وقعت موضوعات الكتاب ، و العناوين الجانبية التى كانت تدل على محتويات الكتاب ، وما حوته من مادة و بحوث ، من الدكتور موقعاً حسناً ، و لكنـــه تخوف أن يكون هـــذا الكتاب الذى صدر من قلم عالم

دينى نشأ و تثقف بعيداً عن العالم الغربى يغلب عليه الطابع الدينى و اللغوى ـــ شأن علماء الأزهر و المعاهد الدينية القديمة ـــ فسأل هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية ؟ فلما كان الجواب بالإيجاب و أرسل المؤلف ثبت المراجع الإنجليزية ، اطمأن الدكتور و أخبر بأن اللجنة قررت طبع هذا الكتاب ، و أبدى إعجابه بالكتاب سواءاً من الناحية الأدبية أو الناحيـــة المعنوية ، و كان اليوم الذى تلقى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور ، من أعظم أيام العمر فرحاً و سروراً ، لا ينساه المؤلف حتى هذا اليوم .

و مضت على ذلك شهور و أنا لا أعلم مصير هذا الكتاب ، و قد سافرت فى أثناء هذه المدة إلى الحجاز للمرة الثانية ، و ذلك فى سنة ١٣٢٩هـ (١٩٥٠م) و فوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سوريا الأستاذ جواد المرابط عضو المجمع العلمى بدمشق ، كان قد استصحبها من القاهرة ، و كان يبدى إعجابه بعمق فكر علماء الهند و أصالتـــه ، مستشهداً بهـــذا الكتاب ، الذى وقع إلى يده فى زيارته القريبة لمصر ، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفـــه

و من السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور ، الذى يفاجأ بأثره العلمى التأليفى الأول الصادر من أكبر دور النشر ، فاستعاره من سعادة السفير ليرده إليه بعد مطالعته ، و لكنه فوجئ كذلك بأن المقدمة الصغيرة التى قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب ، لم تكن فيها تلك القوة التى كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامى كبير كالدكتور أحمد أمين ، و كان متحفظاً شديد التحفظ فى إبداء انطباعاته عن الكتاب و مؤلفه .

ولم يكن الأمر غريباً — و إن كان ثقيلا على المؤلف — فليس كل من يقدم كتاباً يتحمس للموضوع الذى كتب فيه ، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرة المؤلف و يؤمن بها إيماناً عميقاً ، و ليس كل باحث علمى و كاتب كبير — و إن كان فى درجة الدكتور أحمد أمين بك — يرى أن العالم قد خسر حقاً ، و الإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط المسلمين ، و انسحابهم عن ميدان القيادة و التوجيه العالمى ، فذلك نمط خاص للتفكير و التفسير للتاريخ ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف و دارس .

و ليست التبعة على الدكتور أحمد أمين — و فضله لا ينكر في نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف و الترجمة و النشر الموقرة — و لكن التبعة على مؤلف الكتاب الذى أمل فيه الآمال البعيدة ، و حمله ما لم يتهيأ له فكرياً و علمياً ، ولم تساعد ظروفه التربوية و الدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج ، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذى كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد و من كبار المؤلفين و الأدباء ، خاف — و له الحق — أن يعطى المؤلف الذى لا يعرفه معرفة شخصية ولم يتحقق مستواه العلمى و النظرة التى ينظر بها إليه مواطنوه و علماء بلاده ، أكثر مما يستحق ، فيقال إنه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته و قيمته ، و سامحه الله و جزاه عن المؤلف و القراء أحسن الجزاء ، فقد كان السبب فى وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التى لا تعبر كتاباً يصدر عن مؤسسة دينية ، شيئاً من العناية و الاهتمام .

و اتفقت رحلة المؤلف إلى مصر فى يناير سنة ١٩٥١م بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر ،

فوجد أن الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية و الدينية و حل منها محلا لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به ، و قد قرىء فى نطاق واسع من المثقفين و المعنيين بقضية الإسلام و انتفاضته ، و صحوة المسلمين ، و كان نشاط « الإخوان المسلمون » قد بدأ يدب ، و خفف الخناق عليهم بعض التخفيف ، و كأن هذا الكتاب قد جاء فى أوانه و مكانه ، و تناغم مع شعورهم وما يدعو إليه ، و كان الجرح عميقاً و دامياً شهادة الإمام الشهيد و حل حركة الإخوان ، فجاء هذا الكتاب مسلياً معزياً ، بل كسلاح علمى يدافعون به عن فكرتهم ، و شحنة جديدة و زاداً و مدداً « لبطاريتهم » فقرأوه فى المعتقلات ، و قرروه فى منهج الدراسة و المطالعة ، و استشهدوا ببعض عباراته فى المحاكم ، و استقبلوا — بطبيعة الحال — مؤلفه بحماس و حب ، و كان الكتاب خير معرف للمؤلف الزائر الجديد ، و ممهداً للثقة به و الحديث معه .

و كان الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ سيد قطب

فى مقدمة من رحب بهذا الكتاب ، و عنى به ، و شجع تلاميذه و إخوانه على مطالعته ، و فى يوم من الأيام (١) تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضوره ندوة تجتمع فى منزله بحلوان كل جمعة ، و تبحث فى موضوع إسلامى ، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين. و تتناول البحث فيه ، و كان الموضوع ذلك اليوم كتاب « ماذا خسر العالم » و قد لخصه أحد تلاميذه من خريجى جامعة فؤاد الأول ، فلبى المؤلف هـذه الدعوة الكريمة الحبيبة ، التى هى رمز لتقدير مجهوده العلمى الكتابى المتواضع و تشريف له ، فحضر هذه النـدوة و ساهم فى البحث ، و أجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف .

و هناك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوى ، و أسلوبه العلمى الهادف ، و قبل الأستاذ سيد قطب هـذه الدعوة بسرور

---

(١) كان ذلك فى ١٩/٨/١٣٧٠هـ (٢٥/ من نيسان ١٩٥١م) (مذكرات سائح فى الشرق العربى) .

و حماس ، و كتب تلك المقدمة القوية التى زادت فى قيمة الكتاب ، و قوته (١) .

و صادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل و العالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى ، أستاذ كلية أصول الدين فى الأزهر ، و رئيس جماعة الأزهر للتأليف و الترجمة و النشر

---

(١) و إلى القارىء مقتطف صغير من تقديم الأستاذ سيد قطب :

« إن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى و الاجتماعى فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية » .

و يقول .

« من هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثر بالطريقة الأوربية ، التى ينقصها هذا التناسق و هذه العدالة و هذا التحقيق » .

ـ الذى كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوهين به ، و الحافزين على قراءته ـ إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعـــة الأزهر (١) فسمح له المؤلف شاكراً مسروراً ، و أخذ الدكتور التصريح و الموافقة من الدكتور أحمد أمين ، و كتب مقدمة يتجلى فيها إخلاصه و حبـه ، و استجابته للفكرة ، حلى بها جيد الكتاب (٢) و فاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصى أحد علماء الأزهر و أساتذته ، فى إحدى زياراته ، فاختلس منه معلومات عن أسرته و بيئته و نشأته ، و دراسته و حياته ، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها ، فكون بها مقالا عن المؤلف عنونه بـ « أخى

---

(١) و ذلك فى ٣/ من حزيران ١٩٥١م .

(٢) و مما جاء فى هذه المقدمة قوله :

« و أشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعتـه الأولى فى أقل من يوم ، و أغرمت به غراماً شديداً ، حتى لقـد كتبت فى آخر نسختى و قد فرغت منه « إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام » .

أبو الحسن » (صورة و صفية) و ضمه إلى الكتاب ، ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣م ، و تلت هذه الطبعة طبعات و ترجمات فى لغات الشرق و الغرب وما هى ذى الطبعة الثالثة عشرة القانونية .

و هذه قصة الكتاب فى إيجاز و صدق و صراحة ، و لله المن و الفضل أولا و آخراً .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

٢٠ رجب ١٤٠١هـ

٢٥ مايو ١٩٨١م

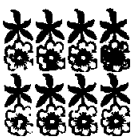

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١)

لم يكن انحطاط المسلمين أولا ، و فشلهم و انعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، و انسحابهم من ميدان الحياة و العمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع و تكرر فى التاريخ من انحطاط الشعوب و الأمم ، و انقراض الحكومات و الدول ، و انكسار الملوك و الفاتحين ، و انهزام الغزاة المنتصرين ، و تقلص ظل المدنيات ، و الجذر السياسى بعد المد ، فما أكثر ما وقع مثل هذا فى تاريخ كل أمة ، وما أكثر أمثاله فى تاريخ الإنسان العام ! و لكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له فى التاريخ ، مع أن فى التاريخ مثلا و أمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب و حدهم ، ولا يخص الشعوب و الأمم التى دانت بالإسلام ، فضلا عن الأسر و البيوتات التى خسرت دولتها و بلادها ، بل هى مأساة

---

(١) مقدمة كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها ، فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته و رزيته ، و انكشف عنه غطاء العصبية ، لا تخذ هذا اليوم النحس — الذى وقعت فيه — يوم عزاء و رثاء ، و نياحة و بكاء ، و لتبادلت شعوب العالم و أممه التعازى ، و لبست الدنيا ثوب الحداد ، و لكن ذلك لم يتم فى يوم ، و إنما وقع تدريجياً فى عقود من السنين ، و العالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث ، و لم يقدره قدره ، و ليس عنده المقياس الصحيح لشقائه و حرمانه .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر ، و فتحت مجموعاً من البلاد و الأقاليم ، و استعبدت طوائف من البشر ، و نعمت و ترفهت على حساب الضعفاء و المحكومين ، و إن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم و السلطان و الرفاهية و النعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها فى الجور و الاستبداد و حكم الإنسان للإنسان ، و إن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم

و سرى فيها الوهن ، و سقوط دولة تآكلت جـــذورها و تفككت أوصالها، بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون، و إن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل و سلطان زائل، و إنه لفى غنى و إنه لفى شغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده ، ولم يكدح ساعة لصالحه ، و إن السماء و الأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التى تقع و وقعت كل يوم و وقعت ألوف المرات « كم تركوا من جنات و عيون ، و زروع و مقام كريم ، و نعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك و أورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهـــم السماء و الأرض وما كانوا منظرين » (١) .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين و الأمم كانوا كلا على ظهر الأرض ، و ويلا للنوع الإنسانى ، و عـــذاباً للأمم الصغيرة و الضعيفة ، و منبع الفساد و المرض فى جسم المجتمع البشرى ، يسرى منـــه السم فى أعصابه و عروقه ، و يتعدى المرض إلى الجسم السليم ، فكان

(١) سورة الدخان : ٢٥ — ٢٩ .

لا بد من عملية جراحية ، و كان قطع هذا الجزء السقيم و إبعاده من الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين و رحمته ، يستوجب الحمد و الامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية ، بل من جميع أفراد الكون (فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين) (١) و لكن لم يكن انحطاط المسلمين و زوال دولتهم و ركود ريحهم — وهم حملة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشرى كالعافية للجسم الإنسانى — انحطاط شعب أو عنصر أو قومية ، فما أهون خطبة وما أخف وقعه ، و لكنه انحطاط رسالة هى للمجتمع البشرى كالروح ، و انهيار دعامة قام عليها نظام الدين و الدنيا .

فهل كان انحطاط المسلمين و اعتزالهم فى الواقع مما يأسف له الإنسان فى شرق الأرض و غربها ، و بعد قرون مضت على الحادث ؟ .

وهل خسر العالم حقاً — وهو غنى بالأمم و الشعوب — بانحطاط هذه الأمة شيئاً ؟ وفيم كانت خسارته و رزيته ؟ .

---

(١) سورة الأنعام : ٤٥ .

وماذا آل إليه أمر الدنيا ، وماذا صارت إليه الأمم بعدما تولت قيادهـا الأمم الأوروبية حتى خلفت المسلمين فى النفوذ العالمى ، و أسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الاسلامية ؟ وماذا أثر هذا التحول العظيم فى قيادة الأمم و زعامة العالم فى الدين و الأخلاق و السياسة و الحيـاة العامة و فى مصير الانسانية ؟ .

و كيف يكون الحال لو نهض العالم الاسلامى من كبوته وصحا من غفوته ، و تملك زمام الحياة ؟ .

ذلك كله ما نحاول الاجابة عنه فى صفحات الكتاب ! . . .

أبو الحسن على الحسنى

أيها القارىء العزيز !

هل تعرف أن هناك صراعاً فكرياً بل معركة فكرية فى جميع الأقطار الاسلامية فى هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً و معركة بين الأفكار و القيم الاسلامية و الأفكار و القيم الغربية ، وهى المعركة الحامية الحاسمة الحقيقية التى يخوضها العالم الاسلامى اليوم وهى التى ستقرر مصيره ، وهى معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التى يغالى فى تصويرها و تهويلها الكتاب و المؤلفون .

اقرأ مؤلفات سماحة العلامة أبى الحسن على الحسنى الندوى التالية تساعدك فى فهم أوضاع العالم الإسلامى وحل مشكلاته و الخروج من الأزمة الحقيقية الموجودة فى المجتمع العربى و الاسلامى ، و ترشدك إلى جبهات الدعوة الاسلامية و مجالاتها الرئيسية .

- الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية .
- نحو التربية الاسلامية الحرة .
- ترشيد الصحوة الاسلامية .
- الدعوة الاسلامية فى العصر الحاضر — جبهاتها الحاسمة و مجالاتها الرئيسية .

— لفت نظر و استرعاء انتباه قادة الصحوة الاسلامية و المعنيين بها إلى جوانب هامة و ثغرات حاسمة .

— فى سبيل تدعيم الصحوة الاسلامية و تعميق أثرها و توسيع دائرتها .